تاريخ الفكر الاجتماعي للإنسان .

المدرسة البنائية الوظيفية

*** بارسونز :**

ننتقل الآن إلى الحديث عن فكر تالكوت بارسونز Talcott Parsons (١٩٠٢) الذى كان لفترة طويلة زميلا لسوروكين بجامعة هارفارد ، فهو الآخر من علماء الاجتماع النظريين ذوى التأثير البالغ . وعلى الرغم من وجود بعض جوانب الشبه الهامة بين نظريات كلا العالمين — كما سيتضح لنا فيما بعد — إلا أنهما كثيراً ما اعتبرا مع ذلك خصمان سوسيولوجيان .

وعلى الرغم من أن بارسونز ولد فى الولايات المتحدة وتخرج فى كلية أمهرست Ambherst College — حيث كانت البيولوجيا محور اهتمامه الأساسى — إلا أنه قد تأثر إلى حد بعيد بالعلماء والمفكرين الأوروبيين ؛ فدرس فى مدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن London School of Economics على يد عالمى الاجتماع هوبهاوس Hobhouse وموريس جينزبرج Ginsberg والأنثروبولوجى مالينوفسكى الذى أثار فيه الاهتمام بالاتجاه الوظيفى ، ثم اتجه بعد ذلك — وفى أثناء دراسته بجامعة هيدلبرج — إلى العلماء الاجتماعيين الألمان . وهناك أعد رسالة دكتوراه بعنوان « مفهوم الرأسمالية فى نظريات ما كس فيبر فيرنر وزمبارت » The Concept of Capitalism in the Theories of Max Weber, Werner and Sombart, ، واستطاع بعد ذلك بسنوات قليلة أن يترجم إلى اللغة الإنجليزية كتاب فيبر « الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. ، ثم عمل بارسونز طوال عامى ١٩٢٦ — ١٩٢٧ مدرساً للاقتصاد بكلية أمهرست . ثم شغل فى العام التالى نفس الوظيفة بجامعة

هارفارد ، وأصبح فيما بعد عضواً فى هيئة التدريس بقسم الاجتماع الذى أنشئ فى ذلك الوقت حديثاً تحت رئاسة سوروكين . وقد أصبح بارسونز — كأستاذ لعلم الاجتماع — رئيساً لفرع العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد فى عام ١٩٤٦ ، وهو المنصب الذى ظل يشغله لبضع سنوات .

وقد اتصل بارسونز — فى هارفارد — فى مرحلة مبكرة من حياته بمجموعة من أبرز علماء الاقتصاد ، واشتغل عن كثب بمؤلفات المفكر الاقتصادى النظرى الكلاسيكى ألفريد مارشال Marshall (١٨٤٢ — ١٩٢٤) . كما درس مؤلفات دوركايم ، وكان مناوئاً لفردية سبنسر ومدافعاً عن علم لدراسة المجتمع كواقع من نوع خاص متميز (ارجع إلى الفصل التاسع من هذا الكتاب) . ثم خضع فيما بعد لتأثير عالم النفس ل . هندرسون Henderson ، وأعجب بكتابات عالم اجتماع أوربى آخر شهير هو فلفرويدو باريتو Pareto . على أنه من بين هؤلاء العلماء ، نجد أنه كان لمؤلفات فيبر ، والاقتصاديين ، ودوركايم ، وباريتو تأثيراً خاصاً فى تشكيل آراء بارسونز النظرية . ويبدو ذلك واضحاً فى أول مؤلفاته الهامة « بناء الفعل الاجتماعى » (١٩٣٧) The Structure of Social Action وقد بدأ بارسونز فى تلك الفترة يزداد اهتماماً بنظرية التحليل النفسى تشهد بذلك كثير من مؤلفاته التى ظهرت فيما بعد .

وقد ظل بارسونز يؤكد سنوات طويلة — وباستمرار — ضرورة وضع نظرية منهجية عامة للسلوك البشرى . وهو يعتبر وضع نظرية مجردة دليلا أساسياً على نضوج علم من العلوم ؛ ذلك أن مثل هذه النظرية تيسر الوصف ، والتحليل والبحث الإمبيريقى ويؤكد بارسونز أن هذه الأهداف تتطلب إطاراً مرجعياً عاماً (مثل المكان الثلاثى الأبعاد ، والقوة فى الميكانيكا) ، وتستدعى منا فهم بناء النسق النظرى فى حد ذاته . وهو يرى أن نظرية علم الاجتماع (النظرية السوسيولوجية) يجب أن تكون وظيفية — بنائية . (نلاحظ هنا أن بارسونز يستخدم مصطلح « وظيفى » فى أغلب الأحيان — وكما سنوضح فيما بعد بمعنى يختلف بعض الشىء عن معناه عند الوظيفيين) .

وقد قامت المساهمات المبكرة التى قدمها بارسونز على الاعتقاد بأن الفعل الاجتماعى هو الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع . وهى رأى يعكس لنا التأثير القوى لماكس فيبر

عليه . وربما كذلك — ولكن إلى حد ما — تأثير توماس Thomas أيضًا (١٩) . ويقدم لنا بارسونز فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » نظرية بالغة التعقيد فى الفعل الاجتماعى ، يذهب فيها إلى أن هذا الفعل الاجتماعى سلوك إرادى . ويعتمد التحليل إلى حد كبير على مخطط الوسائل والغايات . وتختلط هذه الصياغة المعقدة لنظرية فى الفعل الاجتماعى — والتى تمثل جهداً طموحًا ولكنه مبكر لبارسونز — تختلط بتحليل مفصل لنظريات فيبر ، ودوركايم ، وباريتو ، والفريد مارشال (وبذلك يعد كتابه مصدراً ثانويًا هامًا عن هؤلاء العلماء) . وكثيراً ما اعتبر — علاوة على هذا شديد الصعوبة أو مغرقًا فى التجريد بحيث يتعذر الاستعانة به فى البحث . وقد أعاد بارسونز — تحت تأثير هندرسون — صياغة نظريته فى صورة أنسب للعرض هنا .

كانت الصورة الحديثة من النظرية قد صيغت فى مجموعة من المقالات العلمية التى جمعت فيما بعد فى كتاب « مقالات فى النظرية السوسيولوجية ، البحتة والتطبيقية (١٩٤٩) Essays in Sociological Theory, Pure and Applied ثم تعرضت فيما بعد لمزيد من التعديلات فى كتابه « النسق الاجتماعى » (١٩٥١) The Social System وتجرى الآن — وقت تأليف هذا الكتاب — عملية تعديل فى بعض آراء بارسونز النظرية . ويرجع ذلك — إلى حد ما — إلى تأثير التعاون مع عدد من الزملاء (٢٠) . وقد ارتبط كتاب بارسونز التالى على ذلك ارتباطًا وثيقًا بآراء إدوارد شيلز Shils ، الذى ألف معه مقالا علميًا مطولا بعنوان : « القيم ، والدوافع ، وأنساق الفعل » Values, Motives and System of Action والذى نشر فى كتاب أشرف الاثنان على تحريره عنوانه : « نحو نظرية عامة للفعل » (١٩٥١) Toward a General Theory of Action ونلاحظ على الآراء النظرية المعروضة فى هذا المقال (٢١) أنها أشد تعقيداً — من بعض

---

(١٩) سبق أن تناول ر . و . ج . هينكل R. and G. Hinkle فى كتابهما « نمو علم الاجتماع الأمريكى » The Development of American Sociology كلا من زنانيكى — الذى اشترك مع توماس فى التأليف — وبارسونز ، وماكيفر ، وهوارد بيكر بوصفهم أبرز المفكرين النظريين فى موضوع « الفعل الاجتماعى » .

(٢٠) T. Parsons, The Social System (New York : The Free Press, 1951), PP. 537 - 38.

(٢١) نشر بارسونز فيما بعد تعديلات أخرى : لهذه الآراء ، وخاصة فى : T. Parsons, E.A. Shils and F. Bales, Working Papers in the Theory of Action (New York : The Free Press 1953).

النواحى – بالقياس إلى تلك التى عرضها فى المؤلف الأصلى « بناء الفعل الاجتماعى » . ولكنها برغم ذلك تقترب فى كثير من نواحيها اقترابًا وثيقًا من الآراء المقبولة لدى جمهور كبير من علماء الاجتماع . على أننا نجد التركيز هنا أيضًا على « الفعل الاجتماعى » على خلاف التأكيد – فى العنوان – على « النسق الاجتماعى » .

وينطوى الإطار المرجعى « للفعل » فى رأى بارسونز على : فاعل ، وموقف ، وتوجيه الفاعل Actors's orientations إزاء الموقف . ومحور نظريته هو توجيه الفاعل (وهو شبيه بتعريف توماس للموقف) ، ويمكننا التمييز بين عنصرين توجيهيين هما : التوجيهات الدافعية Motivational orientations ، والتوجيهات القيمية ، وتتصف التوجيهات الدافعية – التى تمدنا بالطاقة التى ستبذل فى الفعل – بجوانب ثلاثة هى :

١ – **إدراكية** : تقابل ما يدركه الفاعل فى موقف معين ، بالنظر إلى نسق استعداد الحاجات need-dispositions عنده (والذى ربما يتداخل – فى تفكير بارسونز – مع الاتجاهات) .

٢ – **انفعالية** : Cathetic : وتتضمن العملية التى عن طريقها يخلع الفاعل أهمية عاطفية أو انفعالية على شىء معين .

٣ – **تقويمية** : وعن طريقها يوزع الفاعل طاقته على الاهتمامات المختلفة التى يجب عليه أن يختار من بينها .

أما التوجيهات القيمية فتشير إلى مراعاة بعض المعايير أو المستويات الاجتماعية ، على خلافات الاحتياجات التى تمثل بؤرة التوجيهات الدافعية . وهناك أيضًا ثلاثة طرق للتوجيهات القيمية إدراكية ، وتقديرية (إعجابية) ، وأخلاقية .

ويمثل هذا المخطط خلفية تشييد ثلاثة أنساق تحليلية هى **النسق الاجتماعى** ، **ونسق الشخصية** ، **والنسق الثقافى** . ويؤكد بارسونز أنه على الرغم من أن هذه الأنساق الثلاثة تمثل تجريداً من السلوك الاجتماعى الملموس ، إلا أن الشواهد الإمبيريقية على الأنواع الثلاثة من التجريد ليست على نفس المستوى .

وكذلك فى مقال له بعنوان : "Some) Comments on the State of the General Theory of Action," American Sociological Review, Vol. 18 (1953) T. Parsons. Bales, and Others, Family, Socialization, and Interaction Process, New York, The Free Press, 1955.

ويختلف المعنى الذى يضفيه بارسونز على **النسق الاجتماعى** من موضع إلى آخر فى تحاليله . فيعرف النسق الاجتماعى فى البداية بأنه مجموعة من الفاعلين الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض، ثم يعرفه فى مكان آخر بأنه شبكة من العلاقات القائمة بين الفاعلين أو شبكة من العلاقات التفاعلية . ويثير هذا التباين فى التعريفات مشكلة هامة خاصة بالمفهوم مؤداها : هل « النقط المادية » للنسق الاجتماعى هى الفاعلون أنفسهم أم العلاقات الاجتماعية ؟

ويعرف بارسونز النسق الاجتماعى بأنه مجموعة من الأفراد المدفوعين بميل إلى الإشباع الأمثل لاحتياجاتهم . أما العلاقات السائدة بين أفراد هذه المجموعة فتتحدد طبقاً لنسق من الأنماط المركبة والمشتركة ثقافياً . وتحتاج هذه القضية — شأنها شأن كثير من القضايا التى تتضمنها مؤلفات بارسونز — إلى تفسير مفصل مرتكز على الإشارة المستمرة للتحليل السابق للفعل الاجتماعى . فالأفراد « مدفوعون إلى الإشباع الأمثل » لاحتياجاتهم التى تسيطر على **التوجيه الدافعى** كما أشرنا من قبل . وعلاوة على هذا يعرف بارسونز علاقة الأفراد بمواقفهم الاجتماعية فى ضوء الأنماط الثقافية الخاصة . وربما يشير مصطلح « علاقة » إلى ما يطلق عليه « توجيه » فى سياق آخر ؛ حيث يشير ذلك الجزء من أفكار بارسونز إلى المكونات الرئيسية الأخرى من توجيه الفاعل إزاء الموقف، وهو التوجيه القيمى . وهنا لا يظهر مصطلح « القيمة » صراحة فى أثناء التحليل، وإنما يمكن افتراض أن الأنماط تنطوى على قيم . وتتميز هذه الأنماط بتركيب ومشاركة ثقافية . ويمكن أن يكون هذا الجانب من النسق الاجتماعى بمثابة قنطرة بين الأنساق الاجتماعية والثقافية : فالنسق الاجتماعى ينطوى على شىء ينتمى إلى الثقافة .

على أن النسق الاجتماعى بالمعنى الذى حددناه فى الفقرة السابقة يختلف عن النسق الاجتماعى كمجموعة من الأفراد المتفاعلين ؛ فكثير من مجموعات الأفراد المتفاعلين لا تتصف بالسمات التى وصفناها فى التعريف الأسبق الأكثر شمولا . وربما يمكن الزعم بأن بارسونز لم يحدد بعد بشكل قاطع عناصر النسق الاجتماعى ، وهو تقصير حال دون تحديد بؤرة الدراسة السوسيولوجية بدقة . إذ من الممكن على أساس تعريف بارسونز المبسط للنسق الاجتماعى اعتبار كل حالة من حالات التفاعل الإنسانى نسقاً اجتماعياً . لذلك كثيراً ما نجده يشير إلى « الأنساق الاجتماعية المستقرة » ، فنظريته عن النسق